الإنحراف المنهجي عند المستشرقين في كتابة السيرة النبوية

(دراسة نقدية)

عبد الصمد شيخ*

إن الدارس للكتب والدراسات في السيرة النبوية بالغرب يعرف أن أجداد المستشرقين من رهبان الكنيسة كانوا أكثر الناس تعصبا وعنادا للإسلام ونبيه صلي الله عليه وسلم حيث وصفوه ونبيه بأوصاف لا تليق بعامّةِ من ينسب إلي الدَّعارة والخساسة والقباحة من أفراد هذا المجتمع دون من تتحرك به أحاسيس أمة ومشاعرها من نبي كريم ودود رؤوف رحيم صلي الله عليه وعلى آله وسلم. ولا شك أن كتابة السيرة ومنهج تدوينها قد تطور عند المستشرقين لكن لم يبلغ من المستوي حتي نقول بأنه قد اكتمل وبلغ أَوْجَه. في الحقيقة أن هذا التطور كان مسايرا لما تطور في الغرب من علم التاريخ.(١) ولو بقي المستشرقون على عنادهم وتعصبهم الذي كانوا عليه سابقا إلي ما قبل الثورة الفرنسية، فلم يكن هناك وزن لقول الغربيين بأننا أنضجنا جميع العلوم المعاصرة وأبلغناها إلي قمتها ومنها علم التاريخ.

رغم تطور علم التاريخ عند أهل الغرب، لم تُحظ كتابة السيرة منه إلا النصيب القليل. فالمستشرقون (المؤرخون) الكبار الذين ساهموا في كتابة السيرة من أمثال اسبرنجر، وولهاؤزن وبروكلمان ومونتجمري وات وغيرهم، لو نراجع إلي أعمالهم في تاريخ القرون الأولي من الإسلام والمسلمين لا نجدهم راعوا هذه المعايير النخبة من تطبيق القواعد المثلي التي استخلصوها من تطور علم التاريخ عندهم خلال القرون الماضية.(٢) فالإنحرافات التي ارتكبها سابقوهم كانت على نفس المنوال عندهم إلا إن شدته خفت وكثرته قلت دون تغيير سواه. فالأشياء التي تجاهلها متقدموهم تعاموها وصرفوا النظر عنها، أو عرفوها بصبها في قالبهم دون بقائها في قالب السياق التاريخي. وأعمالهم مليئة بالتناقضات والتخبطات التي لا تنبئ إلا عن سلوكهم العشوائي في دراسة السيرة النبوية صلي الله عليه وسلم دون السلوك على منهج منضبط متزن شامل.(٣)

---

* الاستاذ المساعد قسم الحديث وعلومه ،كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد باكستان

قال الأستاذ نذير حمدان: "فمن الثابت أن المناهج العلمية تؤدي بالباحثين إلي نتائج واحدة في المجالات العلمية التطبيقية، وإلي نتائج واحدة أو متقاربة في المجالات العلمية الإنسانية النظرية. وقلما نجد الباحثين يتخبطون في دراساتهم سلبا وإيجابا، مدحا وقدحا، حقا وباطلا طالما توحدت طرائقهم في البحث! ولو كانت بحوثهم (أي المستشرين) مبنيةً على مناهج علمية موضوعية لما اختلفت ولما تعارضت إلا من حيث وجهات النفي والإجتهاد والفهم".(٤)

وفي هذا المبحث لا أطيل الكلام بالخوض في المسائل الجزئية التي تفوه بها المستشرقون عن الإسلام ونبيه صلي الله عليه وسلم، وبالتالي نقلها عامةُ الكُتّابِ المسلمين، بل أحاول أن يكون الأمر منحصرا في القضايا الأصولية المنهجية التي طبقها معظم المستشرقين قليلا أو كثيرا في أعمالهم عن تاريخ الإسلام والمسلمين في القرون الأولي. وهي التي تسببت لانحرافهم عن سواء السبيل في هذا الصدد. والكلام في هذا المبحث ينحصر في النقاط التسعة الأساسية، وهي:

النقطة الأولى: عدم الحيادة والنزاهة في البحث:

أول ما يهم الباحثَ هو أن يكون باحثا حرا محايدا نزيها في بحثه العلمي حيث لا يدعم الفكرة التي وضعها في خياله أو ترجحت عنده من قبل، ولو فعل ذلك لكان هذا مضادا لمعايير البحث العلمي. ولا يسمح للباحث بأن يتجاهل أو يتعامي عما ظهر له من الأدلة والقرائن، أو ينحرف عما ثبت عنده بحجج ساطعة إلا بأقوي منها. ومن الأسف أن كثيرا من مؤرخي المستشرقين نجدهم في معظم بحوثهم غير محايدين. ولو أتتبع مواضع السقط هذه ليطول الأمر، لكني أكتفي بسرد بعض الأقوال التي تبين خطورة هذا الأمر وواقعيتها ومدي تأثيرها على الدراسات الإستشراقية. يقول مونتجمري وات:

> "رغم الجهد العلمي المبذول فإن آثار الموقف المجافي للحقيقة والذي ولدته كتابات العصور الوسطى في أوروبا لا زالت قائمة، فالبحوث الموضوعية لم تقدر على اجتثاثها كلياً بعد".

ويقول نورمان دانيال:

> "رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا كلياً عنها كما قد يتوهمون".(٥)

ويقول مالك بن نبي (رحمه الله):

والدكتور غوستاف لوبون حين أراد أن يختتم دراسته عن "الحضارة العربية"، فإنه اختتمها بهذا التأمل الحزين:

"الحق أن استقلال آرائنا وتجردها ظاهري أكثر من أن يكون واقعياً، وأننا لا نكون البتة أحراراً في تفكيرنا- كما ينبغي- حيال بعض الموضوعات، فلقد تجمعت العقد الموروثة، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي".(٦)

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي:

"ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعيِّنون لهم غاية، ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات -من كل رطب ويابس- ليس لها علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب أو الشعر، أو الرواية، والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة، ويبنون عليها نظرية، لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم".(٧)

ويقول الدكتور جواد علي:

"(ولقد كان) كيتاني ذا رأي وفكرة، إذ وضع رأيه وفكرته في السيرة قبل الشروع في تدوينها، فإذا شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويّها، وتمسك بها كلّها ولا سيما ما يلائم رأيه، ولم يبال في الخبر الضعيف بل قواه وسنده وعده حجّة، وبنى حكمه عليه، ومن يدري فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقةكانت. وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث، فصار مسلكه في تدوين السيرة مسلك أولئك الذين قبلوا القصص الإسرائيلي من المسلمين، والقصص الموضوعة المتأخرة التي تجافي روح القرآن وعمل الرسول صلي الله عليه وسلم لما فيه من إغراق في رواية الخوارق وابتعاد عن حدود العقل".(٨)

ويقول الدكتور عبد اللطيف الطيباوي:

"ولكن مما يجب الإعتراف به أن أية دراسة في اللغة العربية أو الإسلامية قد أُنشئت أصلا لتحقيق غرض جدلي أو تنصيري أو تجاري أو دبلوماسي أو علمي أو حتي أكاديمي، ظلت لزمن طويل جدا وعليها مسحة من ظلال عداء عميق الجذور".(٩)

ويقول الأستاذ نذير حمدان:

"ومن الحق أن نقول: لم تكن تلك المواقف عثرات ولا شبهات يمكن لصاحب الفضيلة أن يرجع عنها، وللملتزم بالحق أن يؤوب إليه، وإنما هي مطاعن حاول أربابها أن يجعلوها حقائق ثابتة، وأمورا مسلمة لا تقبل الجدل والنقاش، بل الدفع والرد".(١٠)

ويقول الدكتور عماد الدين خليل:

"ولن يكون غريبا أو يعد تجاوزا على الواقع القول: إن أعمال المستشرقين في السيرة، على تألق بعضها وعمقه وغنائه، لا يمكن أن ترقى بحال إلى المصاف الأول من الأبحاث الجادة، ولا يمكن إلا أن تظل في الخط الثاني أو الثالث، وربما العاشر، إذا وجد المستشرق نفسه ينساق بفجاجة وراء تعصبه النصراني كما فعل لامانس، أو وراء تصوره المادي للكون والعالم والحياة كما فعل بندلي جوزي. إنها لا تغدو أبحاثا حين ذاك ولكن عبثا بمقدساتنا باسم العلم، وتحويلا للسيرة لكي تكون حقلا لتجارب العقل النقدي الغربي ونحن يجب أن نرفض التعامل مع هذا العبث وأن نرفض حتى النظر فيه".(١١)

النقطة الثانية: تأثير خلفية المستشرق على عمله في السيرة:

إن تأثير خلفية الباحث على بحثه أمر طبيعي، وهذا لا يمكن الإحتراز منه كليا لأي باحث. والباحث مهما بلغ من العلم والفضل، إلا أنه لا يستطيع أن يغلب على تفكيره اللاشعوري الذي ينبت مما يحيط به من رجحان البيئة والأفكار. ولكن المشكلة هي أن تؤثر هذه المؤثرات على شخصية الباحث بحيث لا يصدر منه إلا ما كانت موافقةً لها، ولو خالفت فإما ان ترفض وإما أن تؤول. وغالب أمر المستشرقين هو أن خلفياتهم تؤثر على محتويات نتاجهم العلمي.

يقول ناصر الدين (الذي كان اسمه الحقيقي قبل اعتناق الإسلام آتيين دينييه): "(يتعذر) أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة. وأنهم-لذلك- قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي (صلي الله عليه وسلم) والصحابة مبلغا يخشى على صورتها الحقيقية من شدّة التحريف فيها، وبرغم ما

يزعمون من اتّباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإننا نجد-من خلال كتاباتهم- محمدا يتحدّث بلهجة ألمانيّة إذا كان المؤلف ألمانيا، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا. وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب. وإذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها من أثر. إن المستشرقين يقدمون لنا صورا خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة..."(١٢)

ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر في هذا السياق:

"وأما الأهواء: فهي الداء المبير والشر المستطير، والفساد الأكبر، إن هو ألم بأي عمل إلمامة خفيفة الدبيب، بله الوطء المتثاقل، أحاله إلي عمل مستقذر منبوذ كريه، حتي ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه، وحليه وعطوره، وأتمها زينة، من دقة استيعاب وتمحيص، ومهارة، وحذق وذكاء".(١٣)

ونقل مصطفى نصر المسلاتي عن أحد من المفكرين الغربيين قوله:

"تشير الدراسات المستفيضة التي وقف عليها المستشرقون جهودهم والنتائج التي استخلصوها إلى حقيقة واحدة، وهي أن الباحث الغربي عندما يتناول "الإسلام" ينطلق من مسلمات وخلفيات ثقافية آمن بها من قبل".(١٤)

ويقول الدكتور جواد علي:

"ونحن في الوقت الذي ندعو فيه إلي وجوب دراسة تاريخ الإسلام دراسةَ نقدٍ وتحليلٍ، نعترف بأن تطبيق ما نقوله ليس بأمر سهل يسير. وآفة ذلك أن الإنسان مهما حاول تجريد نفسه من نزعات العواطف، فإنه لن يتمكن من التخلص منها تخلصا تاما كاملا. فليست العواطف ملابس ترمي أو تستبدل، أو هي شئ يري ويمكن إدراكه والتغلب عليه. إنها كامنة موروثة في بعض الأحيان، وحاصل جملة مؤثرات خفية، قد تستبعد بعض الناس فتستبعد بأحكامهم، وقد تكون خفيفة يسيرة عند بعض آخر، وقد تكون في حكم العدم عند زمرة. ولكن هذه الزمرة هي أيضا من لحم ودم، وهي معرضة مثل غيرها لظروف قد تسوقها إلي الخضوع لحكم العواطف من حيث تدري ولا تدري تبعا للأحوال ولقوة المؤثرات".(١٥)

وأطرح هنا مثالين الذين يشعران بتأثير خلفية المستشرق على بحثه:

يقول كارل بروكلمان في سياق كلامه عن علاقة محمد (صلي الله عليه وسلم) بيهود المدينة: "ولم يطل العهد بمحمد (صلي الله عليه وسلم) حتي شجر النزاع بينه وبين أحبار اليهود. فالواقع أنهم على الرغم مما تم لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية، كانوا يفوقون النبي الأمي (صلي الله عليه وسلم) في المعلومات الوضعية وفي حدة الإدراك. فالفجوات المختلفة التي تكشف عنها علمه (بالعهد القديم)، والتي كان قد تركها عارية في السور المكية، لم يعد من الممكن أن تظل خافية عليهم".(١٦)

فانظر كيف يتسلل المستشرق إلي القول بتفوق أحبار اليهود على النبي صلي الله عليه وسلم. وليس في القرآن فجوة، وكل ما لم يرد من أحاديث أهل الكتاب في القرآن فإن الله لم ير إعلامه صالحا للأمة. والقرآن ليس كتاب حكاية قوم أو تاريخه. وفي البحث كله (موقف النبي صلي الله عليه وسلم من اليهود) حاول بروكلمان ان يثبت أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يريد أن يُرضي اليهود ويدخلهم في دينه.

ويقول في موضع آخر:

> "كان على محمد (صلي الله عليه وسلم) أن يعوض هذه الخسارة (اي التي حصلت في أحد) التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر، ففكر في القضاء على اليهود، فهاجم بني النضير لسبب واه، وحاصرهم في حيهم.وإذا لم يجروا إخوانهم في الدين من بني قريظة على أن يسعفوهم، فقد اضطروا إلي الإستسلام بعد حصار دام بضعة أسابيع، ثم إنهم هاجروا إلي واحة خيبر".(١٧)

ما أنصف هذا المستشرق! ومونتجمري وات (الذي يعرف بالإنصاف) حين يتكلم في أمر القرآن الكريم للمؤمنين والمؤمنات بالإستئذان قبل الدخول في بيوت غير بيوتهم، وبغض البصر أثناء المرور في الشوارع، يفسر ذلك: "بانحطاط في مستوي الأخلاق، وكان النبي صلي الله عليه وسلم بحاجة إلي السمو به".(١٨) والعياذ بالله منه، هل هذا يستنبط أو يستنتج منه! بل هذا دأبهم الذي تعودوا عليه.

يقول الأستاذ نذير حمدان: "أما المستشرقون فما يوقعون أنفسهم في أخطاء مقصودة منكرة حتي يتبينوا مداها لدي المثقفين المسلمين. فإذا انتبهوا لها ونبهوا أصحابها إليها اعتذروا حينا واستمروا على خطئهم حينا آخر، وإلا فأخطائهم تصبح حقائق، وأغلاطهم تغدو مسلمات علمية يستشهد بها في العلمية والأدبية".(١٩)

النقطة الثالثة: عدم مراعاة السياق والقرائن:

هذا ما نشاهده كثيرا في تعامل معظم المستشرقين مع نصوص مصادر التاريخ الإسلامي. فكثير من الإشكاليات والإعتراضات التي تُوجه إلي الإسلام وتاريخه تندفع حينما تُنظر هذه القضايا بمراعاة القرائن والسياق التاريخي. ولو ننظر إليها ببتر نصوصها من سياقها أو ننظر إلي فكرتها بدون مراعاة القرائن والمقتضيات التاريخية فلايبقي منها إلا الصورة المشوهة المقبوحة. فالمسائل التي تَرِد مرارا على ألسنة المستشرقين وتتعرض لنقدهم من تعدد أزواج النبي صلي الله عليه وسلم، ومشكلة الرقة، وقضية الجهاد أو غزوات النبي صلي الله عليه وسلم، وظاهرة حرية التعبير في الرأي، وفكرة حقوق النسوة الإجتماعية وغير ذلك من القضايا التي أثارها هؤلاء، ما هي إلا أنها تُعرض وتُناقش دون مراعاةٍ للسياق التاريخي.(٢٠)

وبمرور الزمن نري أن إصرار المستشرقين على هذه القضايا قل لإلمام الناس بالمعرفة الجيدة عن الإسلام والمسلمين. وقد طُبع الآن عدد من مصادر التاريخ الإسلامي القديمة القيمة في هذا الصدد. فلم يبق للباحثين إلا أن يراجعوا إلي هذه المصادر الأصيلة دون كتب الفنون واللهو التي كانت مرجعا هاما ومصدرا أساسيا للمستشرقين. وقد انكشف على الباحثين الجدد الأمرُ الذي كان مغموما على زملائهم منذ قرون طويلة.

النقطة الرابعة: الإيهام بكون محتويات الإسلام مقتبسةً من النصرانية:

كثير من المستشرقين يدرسون تاريخ الإسلام والمسلمين مع التخيل في خاطرهم بأن الإسلام مستمد من اليهودية والنصرانية. وهؤلاء يبحثون ثنايا البحث عن المواضع التي تؤيد أسطورتهم. ففي كل من عقائد الإسلام وعباداته وشعائره يتحرون من الأوْجُهِ المتشابهة والصور المماثلة لما يجدون عندهم في اليهودية والنصرانية من التعقدات والألغاز الغامضة.٢١ فإذا وجدوا من التشابه ما يدعم فكرتهم يطيرون به شرقا وغربا دون الإلتفات إلي ماقال ربنا عز وجل: "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا".٢٢ وقال عز وجل: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ".(٢٣)

يقول الدكتور جواد علي في هذا السياق: "إن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني، وطائفة المستشرقين من اليهود، وخاصة بعد تأسيس (إسرائيل) وتحكم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم برد كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء".(٢٤)

أذكر بعضا من هذه الأقاويل على سبيل المثال:

يقول كارل بروكلمان:

"وتذهب الروايات إلي أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصاري. أما في مكة نفسها، فلعله إتصل بجماعات من النصاري كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلي حد بعيد".(٢٥)

وقال أيضا:

"ولم يكن عالَمه (صلي الله عليه وسلم) الفكري من إبداعه الخاص إلا إلي حد صغير. فقد انبثق في الدرجة الأولي عن اليهودية والنصرانية، فكيفه محمد (صلي الله عليه وسلم) تكييفا بارعا وفقا لحاجات شعبه الدينية. وبذلك ارتفع بهم إلي مستوي أعلى من الإيمان الفطري والحساسية الخلقية".(٢٦)

ويقول مونتجمري وات:

"تنتمى كلمتا "قرأ" و"قرآن" الى مجموعة المفردات الدينية التى أدخلتها المسيحية فى شبه الجزيرة العربية..."(٢٧)

وقال أيضا:

"ومن الأسهل أن نفترض أن محمدا كان على صلة متتابعة بورقة بن نوفل منذ فترة مبكرة سابقة على الوحى. والأفكار الاسلامية اللاحقة قد تكون اختلطت الى حد كبير بأفكار ورقة، كعلاقة الوحى الذى نزل على محمد صلّى الله عليه وسلم بالوحى الذى نزل على موسى وعيسى (عليهما السلام)".(٢٨)

وقال أيضا:

"إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله: ذلك التأثير التاريخي للتراث اليهودي النصراني".(٢٩)

وقال أيضا:

"وكانت فكرة الوحى والنبوة بالتأكيد أفكارا يهودية مسيحية، فإنا نقول إن الله سبحانه يوحى كلماته من خلال محمد صلّى الله عليه وسلم ليس- على أية حال- الا مجرد تكرار لما حدث فى الماضى، لكنه جزء من عامل فعال".(٣٠)

وقال بوهل:

"إن محمدا (صلي الله عليه وسلم) قد أخذ أفكاره عن أهل الكتاب، وإن أعداءه كانوا على حق عندما اتهموه بأن له معلمين أجانب يتلقي عنهم ما يقوله في القرآن".(٣١)

فكل هذه الأقوال تدعم الفكرة بأن الإسلام مستمد من الأديان السابقة. يقول الدكتور عبد اللطيف الطيباوي:

"إن النظرة الأولى للإسلام تكشف مواضع شبه بين الإسلام والمسيحية، ولكن النظرة الفاحصة عن قرب تبرز خلافات أساسية وهذه الحقيقة كانت غالبا ما تثير المبشرين في الماضي، وما زالت تستميل قليلا في المجال الأكاديمي إلى التحايل على تصيّد مثل هذه الشوارد كأصول للإسلام. وينزع المبشر والباحث الأكاديمي إلى أن يتناسى وهو ينال من قدر محمد بطريق مباشر أو غير مباشر، كيف يقدس المسلمون الأتقياء المسيح".(٣٢)

النقطة الخامسة: التعول على المناكير من أخبار السيرة:

إذا كان جل هم الباحث أن يثبت في بحثه ما تخيل إليه أو ترجح عنده من قبل، دون ما يصل إليه بعد البحث والتحقيق من المواقف، فلا يبقي له من السبيل إلا أن يعتني بجمع ما يدعم فكرته ولو كان في آخر درجة من الضعف، ويرفض ما يرد فكرته ولو كان في قمة الصحة والتثبت. وهذا هو الواقع العملي المرّ الذي نشاهده عند المستشرقين في معالجتهم للقضايا التاريخية عن الإسلام والمسلمين.

يقول الدكتور جواد علي: "لقد غالي كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة. وقد أثاروا الشك حتي في اسم الرسول (صلي الله عليه وسلم). ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتي في وجود النبي (صلي الله عليه وسلم). وطريقة مثل هذه، دفعتهم إلي

الإستعانة بالشاذ والغريب، فقدموه على المعروف المشهور، واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخرا، أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه. تعمدوا ذلك. لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك".(٣٣)

أنقل هنا ثلاث أمثلةٍ لإيضاح الأمر.

يقول مونتجمري وات:

"إن سعد بن عبادة تغيب عن غزوة بدر لسبب لَسعةِ حيةٍ... ويقال إنه تغيب لأن الحية نهشته، لكنه يظهر أنه مجرد حيلة لا غيره".(٣٤)

وقد استدل وات هنا من رواية الواقدي (رغم أنه رواه بصيغة التمريض) في هذا الصدد.٣٥ وقد ورد في صحيح الإمام مسلم ما يرد خبر الواقدي.٣٦ فلم يستدل بخبر الذي هو أكثر استيفاءا لمعايير الصحة وشروطها.

وقال بوهل (أحد مؤلفي دائرة المعارف الإسلامية): "إن محمدا (صلي الله عليه وسلم) قبل البعثة كان كسائر قومه وثنيا لقوله (تعالي): " وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" ولقوله: "مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ..." وكما ذكر الكلبي أنه قد قدم مرة شاةً للعزي".(٣٧)

واستدل بوهل هنا لموقفه بقوله تعالي (المذكور) وبرواية الكلبي.(٣٨) فالإنحراف في إستدلال بوهل من قوله تعالي واضح. وأما رواية الكلبي فليس لها خطام ولا زمام، وقد ساقه بدون السند. والكلام في الكلبي نفسِه معروف. فانظر كيف ترك بوهل جميع الأخبار الواردة في أن النبي صلي الله عليه وسلم لم يسلك قط على منوال قومه في امتثال طقوسهم الجاهلية وتقاليدهم الوثنية. وقد رد على بوهل صاحب الكتاب المحال إليه بكلام بسط.

وقال ول ديورانت عن النبي (صلى الله عليه وسلم): "وقد أعانه نشاطُه وصحتُه على أداء واجبات الحب والحرب، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات، ونوبات غريبة..."(٣٩)

فقرر ول ديورانت هنا أن وضع السم من قِبَل امرأة يهودية في الشاة التي أهدتها للنبي صلي الله عليه وسلم التي تناول منها النبي صلي الله عليه وسلم أكلةً أو أكلتين كان مجرد زعمٍ للنبي صلي الله عليه وسلم، ولم يكن الأمر كذلك في الحقيقة. فانظر كيف أنكر هذا المستشرق جميع الأخبار الواردة في هذا

الصدد. ولعل هذه المسئلة من المسائل التي اتفق عليها المحدثون والمؤرخون. وليس عندهم خلاف في ذلك إلا في اقتصاص النبي صلي الله عليه وسلم من هذه المرأة. وهذه الأمثلة كافية لإيضاح الأمر.

النقطة السادسة: الشك والإفتراض:

إن الشك والإفتراض من أهم المناهج الغربية الحديثة. وهما وليدتا فلسفة ديكارت ومحور دراسته الذي كان يري بأنه لابد من إثارة الشكوك قبل الوصول إلي الحقيقة. وهذه الفلسفة قد زعزعت ثقة الناس في الكنيسة ورجالها من حيث أصبح الناس آنذاك مثيرين للشكوك في ما كان رائجا عن النصرانية ومؤسسيها فضلا عن الكنيسة ورجالها.٤٠ ثم توسعت هذه الفكرة إلي بقية المعارف من اللاهوت وعلوم الطبيعة، ومن هنا اتخذه علماء اللاهوت الغربيون منهجا أساسيا للنقد على العهد القديم والجديد. ونفس هذه الآلية حاول المستشرقون أن يطبقوها على المصادر الإسلامية الأصيلة مع علمهم بأن مصادر الإسلام الأولي مستندة، وهي أقوي بكثير من مصادر النصرانية عندهم.

يقول عباس محمود العقاد في هذا الصدد:

"إن الحضارة الغربية تحولت منذ القرن السابع عشر من الشك في الدين إلى الشك في العقل إلى الشك في العلم الحديث".(٤١)

ويقول طه حسين في تطبيق منهج الإفتراض والشك على أخبار السيرة عند المستشرقين:

"والغريب في أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون في صحة السيرة نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلي الجحود، فلا يرون في السيرة مصدرا تاريخيا صحيحا، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعا طائفةٌ من الأخبار والأحاديث تحتاج إلي التحقيق والبحث العلمي الدقيق ليمتاز صحيحها من منتحلها. هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة ويغلون في هذا الموقف. ولكنهم يقفون من أمية بن أبي الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدني إلي الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة. فما سر هذا الإطمئنان الغريب إلي نحو من الأخبار دون النحو الآخر؟ أيمكن أن يكون المستشرقون أنفسهم لم يبرءوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟ أما أنا فلست مستشرقا ولست رجلا من رجال الدين، وإنما أريد أن أقف من شعر أمية بن أبي الصلت نفس الموقف العلمي الذي وقفته من شعر الجاهليين جميعا".٤٢

ويقول الأستاذ نذير حمدان مشيرا إلي منهج الإفتراض والشك عند المستشرقين:

"أما التخبطات: فهي أسلوب تعبيري لا ينطلق من المسؤولية العلمية، ولا من أمانة البحث، بقدر ما يهدف إلي طرح خصومات وجدال وأغراب تعبر عن أحقاد وضغائن خاصة، فليست هنا حجة تقرع حجة، ولا برهان يستبين على برهان، ولا موقف فكري جلي يوضح موقفا غامضا، وإنما تتناثر أراء متحيزة، وأقوال متضاربة لا تقوم على أية حقيقة".٤٣

فكثيرا ما نري المستشرقين يستخدمون العبارات أمثال "نَفترض، على سبيل الإفتراض، يُفترض"، أو "ربما يمكن"، أو"يصعب، ومن الصعب" أو "ويُستبعد" وغيرها من الكلمات في القضايا التي هي أكيدة الثبوت. وفي السطور التالية أتعرض لبيان بعض الأمثلة من كتاب مونتجمري وات "محمد (صلي الله عليه وسلم) في مكة" التي توضح بأنه كيف يجعل وات الأمور الثابتة معرَّضة للإفتراض والشك.

يقول وات: "وربما لم تكن خديجة (رضى الله عنها) من الثروة كما يقال عنها أحيانا، ولكننا نستطيع أن نفترض أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد أصبح لديه رأس مال يكفيه للحصول على نصيب متوسط من الأعمال التجارية".٤٤

ويقول في موضع آخر: "وربما يكون محمد (عليه الصلاة والسلام) قد اكتسب بعضا من الاهتمام بنبواته (ورقة بن نوفل)".٤٥

ويقول في موضع آخر: "وعلى أية حال، فربما يكون محمد صلّى الله عليه وسلم قد فعل شيئا فى الوحى المنزل عليه كإعادة ترتيب الآيات الموحى بها، وربما يكون قد حاول أن يصوب النص اذا أحس أن النص الموحى به يحتاج الى اصلاح، ويعتقد أهل السنة بالناسخ والمنسوخ، أى أن هناك آيات قرآنية نسختها آيات أخرى".٤٦

ويقول في موضع آخر: "والسبب المحتمل الثالث: إن هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة قد ذهبوا إليها لينخرطوا فى سلك التجارة... وحتى هذا السبب فى حد ذاته غير كاف لتبرير هجرة المسلمين إلى الحبشة، وحث محمد صلّى الله عليه وسلم بعض صحبه عليها، إذا لم نفترض أنهم كانوا فى حالة يأس كامل فقدوا فيه كل الأمل فى الإصلاح الدينى (الدعوة للإسلام) فى مكة..."٤٧

ويقول في موضع آخر: "إن أفعال أبى جهل، وأفعالا أخرى مشابهة، لا شك فى حدوثها، وأشارت اليها المراجع عند حديثها عن الفتنة التى تعرض لها المسلمون. وعلى أية حال، فان هذا ليس اضطهادا قاسيا. وتتضح هذه النقطة عند دراسة التفاصيل فى السيرة لابن هشام، وكتاب الطبرى وطبقات ابن

سعد. فهذه المراجع لم تذكر سوى أسوأ الحالات أو ما هو مفترض أنه أسوأ الحالات، ولم تذكر أن ذلك هو الوضع العام أو المعدل العام. فكل الشواهد تجعلنا نفترض أن الاضطهاد لم يكن عنيفا".٤٨ وهذه بعض الأمثلة من كثيرها المتناثر في كتاب وات التي جعلها مثابةً للإفتراض والشك، دون أنها متيقنة الوقوع. ولو نريد أن نورد الأدلة المتوفرة على ثبوت هذه المواقف لقلت صفحات الرسالة. ولا نحتاج إلي سرد الأدلة لإثبات هذه الوقائع التاريخية، بل المجري التاريخي للقرون الأولي من تاريخ الإسلام والمسلمين كاف لإثباتها. وللأسف أننا نسمع المستشرقين يقولون: لا تنظروا إلي أحداث التاريخ، بل ابحثوا عن أسباب حدوثها. فلو ننظر ونتعمق (بأعين المستشرقين) إلي أسباب الوقائع التي جعلها وات معرضة للإفتراض والشك ليظهر الأمر بيناً. لكن المستشرقين مكرَهون بسبب جبلتهم التي طُبعوا عليها.

والمستشرقون يشكون فيما ثبت وقوعه من أحداث التاريخ حسب معاييرهم أنفسهم. أنظر هذا بوهل يشك في أن يكون الرسول (صلي الله عليه وسلم) قد بعث برسائل إلي الملوك المجاورين لدولته يدعوهم فيها إلي الإسلام ويري هذا مستبعدا بأن يتعلق الرسول (صلي الله عليه وسلم) بفكرة مغلقة في الخيال والوهم مثل إدخال هرقل أو كسري في الإسلام... رغم أنه لم يكن يملك القوة اللازمة لإجبارهما على اعتناق الإسلام ولا المغريات التي تجعلهما يفعلان ذلك من تلقاء نفسهما.٤٩ فالذين أدركوا هذه الوثائق وأتوا بها إلي حيز الطباعة هم كانوا زملائهم المستشرقين.٥٠

ويقول مونتغمري وات في طريقة التراجع عن أغلاط سلَفهم: "إذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد، فيجب علينا في كل حالة من الأحوال التي لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسّك بصلابة بصدقه، ويجب ألاننسى أيضا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكنا، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه".٥١

فهل بقي غموض في أنهم لماذا يطبقون منهج الإفتراض والشك في أخبار التاريخ وبالأخص في مرويات السيرة!!!

النقطة السابعة: الخيانة في النقل:

إن الباحث أمين على ما يكتب ولمن يكتب وعمن يكتب. وهذا لأن أمر بحثه يتعول عليه كثير من الدراسات اللاحقة المتعلقة بموضوع بحثه. وقد تقع أطروحتُه فيما بعدُ أساسا علميا نظريا لأفكار خاصة عن أناس أو شعب أو دين مخصوص. فلا يجوز له أن يخون في هذا الشأن. وخطورة الخيانة

العلمية في مثل هذه الأمور ليست قاصرة على جيل أو عصر خاص، بل قد يمتد أثرها إلي أجيال عديدة وقرون مديدة.

ومن الأسف أن هذه الظاهرة شائعة في أبحاث كثير من المستشرقين. ولا نتكلم في هذا الصدد عن مستشرقي القرون السابقة، بل نتكلم عمن هم من القرن العشرين أو قبله بقليل. وقد حصل كل واحد منهم على الألقاب العلمية مثل الدكتور والأستاذ والباحث العلمي وغيرها من الألقاب الضخمة الفخمة.

يقول المستشرق نولدكة الألماني متأسفا عن العثرات التي وقع فيها في شبابه:

"إن آثار تهور الشباب لا يمكن محوها كلها إلا بإعادة النظر فيما كتب، أو الإبتداء بوضع تآليف جديدة تعفي أثر القديمة. فإن كثيرا من المسائل التي كنت أعتقد بصحتها قليلا أو كثيرا استبانت لي فيما بعد غير أكيدة".٥٢

ويقول عبد اللطيف الطيباوي (رحمه الله) في هذا السياق:

"إن الحقائق كثيرا ما تحرف فيتعرض القارئ نتيجةً لذلك -إذا لم يكن على علم واسع- إلي شئ من الإيحاء برأي معين، أو أنه يتعرض في الأقل إلي اختلاط في الأمور تجعله عاجزا عن التمييز بين الأصل المتوارث لدي جماعة المسلمين وبين رأي الكاتب. وهكذا نجد كثيرا من المستشرقين الذين يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة يهملون ملاحظة أية مبادئ أولية يفترضها المنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخية. فهم يؤكدون مثلا أن القرآن من إنشاء محمد (صلي الله عليه وسلم)، ثم يذهبون مذهبا بعيدا في تأسيس الأحكام التاريخية والعقدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه التأكيدات بمجرد التكرار إلي مرتبة الحقائق الثابتة".٥٣

والمستشرقون الذين خانوا في بحوثهم ليسوا قليلي العدد من حيث أن نتتبع ونستقصي عن خياناتهم، بل هم كثيرون. ولكني أنقل من خياناتهم التي استشرفت عليها من خلال مراجعتي (القليلة) عن كتبهم أو عما كتب عن كتبهم. وإليكم هذه:

ويقول أميل درمنغم:

"حاول محمد (صلي الله عليه وسلم) مرتين أن يبلغ أماكن الضواحي السهلة ليقضي حاجات شبابه... ولكن حالا مفاجاة تثنيه..."٥٤

وقد تبني درمنغم موقفه هذا على أساس الخبر الذي أخرجه الحافظ الحاكم وابن حبان والبيهقي.٥٥ وليس فيه ما يشعر به قول درمنغم المبهم إلا الإستماع إلي السمر التي كان من عادات الناس المرغوبة في الجاهلية. فانظر كيف جعل الذرة جبلا. وقد ضعف الخبر الشيخُ الألباني.٥٦

يقول مونتجمري وات:

"ومن الغريب أن الرجل الذي تنسب إليه شائعة محمد (صلي الله عليه وسلم) كان من بين رماة فصيلة عبد الله بن جبير".٥٧

وقد تبني موقفه هذا على خبر الواقدي، ومن خيانته في هذا الصدد أنه لم يشر إلي تمام رواية الواقدي التي آخرته ترفض افتراض المستشرق المزعوم.٥٨

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب:

"إن عائشة رضي الله عنها زوجةَ محمدٍ (صلي الله عليه وسلم) الشابةَ قد تُركت في المؤخرة قبل أن يصل محمد (صلي الله عليه وسلم) وأصحابه إلي المدينة. ثم قدمت المدينة مع شابٍ رائعِ الجمال بعد ما وصل الآخرون (من أصحاب القافلة)، وقد جهد ابن أبي في تضخيم الفضيحة".٥٩

فانظروا كيف لوّن مونتجمري وات هذه القضية وجعلها فضيحةً رغم انه يَعرف ما وصلت إليه القضيةُ من تبرئة عائشة رضي الله عنها مما أُتهمت به من قِبَل المنافقين. ولم يرد في مصادر التاريخ والسيرة بأن صفوان بن المعطل رضي الله عنه كان شابا جميلا. وهذا ليس إلا من خيانة هذا المستشرق الذي يعد من أكابر علماء التاريخ المعاصرين.

ويقول مستشرق آخر ول ديورانت ما نصه:

"وكان للزبير بيوت في عدة مدن مختلفة، وكان يمتلك ألف جواد وعشرة آلاف عبد..."٦٠

وقد تبني موقفه هذا على خبر كعب بن مالك،٦١ ومن خيانته في هذا الصدد أنه لم يذكر آخر حصة الرواية المذكورة من قول كعب: بأن الزبير رضي الله عنه ما كان يدخل بيته منها درهما واحدا، يعني أنه يتصدق بذلك كله. فانظر هذه الخيانة الجلية.

ويقول مستشرق آخر فان فلوتن:

"وقد فرضت حالة الترف المتصاعدة هذه (يقصد الترف الذي أصابه المسلمون ثمرةً للفتوح) تغطية دائمة لمواجهة متطلبات جديدة، واللجوء إلى الاستدانة كطريقة فذة من أجل إشباع رغباتهم ...(ثم أحال إلي تاريخ الطبري)..."٦٢

وعندما نراجع إلي تاريخ الطبري لا نجد شيئا من هذا القبيل إلا أنه نقل قصةَ استدانة سعد بن أبي وقاص من بيت مال الكوفة، وكان عبد الله بن مسعود خازنه آنذاك.٦٣ وليس فيه ما يقوله فان فلوتن عن الإسلام والمسلمين مطلقا.

فهذه بعض الأمثلة (على سبيل المثال) التي خان فيها هؤلاء المستشرقون. وهذه كافية لتوضيح النقطة المعَنونَة بها فوق، ولو نتتبع كتبهم لنجد مئات الأمثلة من هذا النوع.

النقطة الثامنة: النفي والإسقاط والعكس:

إن قضية الإسقاط والنفي عامة في الدراسات الإستشراقية عن الإسلام والمسلمين. والنفي لايشمل إلا على إنكار ما ثبت بأدلة قوية. وكثير من القضايا التي أنكرها المستشرقون أو قرروها مستحيلا هي من هذا القبيل رغم أنها ثبتت بأدلة متناثرة التي لا تقل ثبوتًا عن الخبر المشهور. والإسقاط هو عبارة عن إسقاط المستشرقين الواقعَ المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ، ثم تفسيرها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم.٦٤ والمراد بالعكس بالمعني العلمي هو المفهوم المخالف. ولا شك أن كل مفهوم لا يصلح أن يراد عكسه.

يقول: إميل درمنغم (Emile Dermenghem): "من المؤسف حقا أن غالي بعض هؤلاء المتخصصين في النقد أحيانا، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص. ولا تزال النتائج التي انتهي إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي".٦٥

وقد فصل عن هذه النقاط الثلاثة عدد من الباحثين الجامعيين المعاصرين. ومن أراد المزيد فليراجع إلي كتبهم.٦٦

النقطة التاسعة: التفسير المادي أو العلماني لوقائع السيرة:

إن الفكر المادي في الوضع الراهن قد غلب على كل شئ، ومن مشكلة المؤرخ الغربي المعاصر أنه تأثر بهذا الفكر من حيث أنه ينظر إلي كل حدث تاريخي بنظرة مادية بحتة. وهو ليس بمستعدّ لأن يقبل عاملا دينيا العاملَ الأساسي خلف مجريات التاريخ وبالأخص التاريخ الإسلامي. فكل وقائع السيرة وأحداثها عندهم ليس خلفها سبب إلا سبب مادي، وبالتالي أن الإسلام لم ينمُ ولم يرتقِ إلا بسبب فعالية العامل الاقتصادي المادي.٦٧

يقول مونتجمري وات: "إن اهتمام المؤرخين ومناهجهم قد تغيّرت خلال نصف القرن الأخير، ولا سيّما أنهم أدركوا بصورة أفضل العوامل المادّية الكامنة في التاريخ. ويعني ذلك أنّ مؤرخي منتصف

القرنِ العشرين يهتمون أكثر بتحديد أثر كثير من المسائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، دون أن يهملوا الجانب الديني أو يقلّلوا من شأنه".٦٨

ويعزو وات ظهور الإسلام بأن ذلك كان ردا على مرض العصر الذي سببه التطور الذي انتقل بالعرب من حياة بدوية إلي اقتصاد حضري. ويذكر أن التوتر الذي كان يشعر به محمد وبعض معاصريه يعزي في النهاية وبلا شك إلي هذا التنافر بين سلوك الناس الواعي والأساس الإقتصادي لحياتهم.٦٩

يقول عمر بن مساعد الشريوفي:

"لا يمكن تفسير أحداث الغزوات بعيدا عن الجوانب الغيبية الإيمانية لأنها المحرك الأساسي والدافع الرئيسي لتلك الغزوات. ومتي تجاهل الدارس او الباحث هذه الجوانب المهمة، صعب عليه تفسير وتصور طبيعة الجهاد الإسلامي، وتخبط في إنشاء أهداف وبواعث مادية لا وجود لها. وغزوات النبي صلي الله عليه وسلم اشتملت على أحداث لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء المعطيات الإيمانية الغيبية، وقسرها في قوالب مادية يخالف طبيعتها وواقعيتها".٧٠

إن أغراض المستشرقين وأهدافهم خلال التاريخ قد اختلفت لاختلاف مقتضيات كل زمان. وقد كان من أهم هذه الأغراض ما ذكرها الأستاذ نذير حمدان في كتابه القيم "الرسول صلي الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين".٧١ ولا شك أن الأهداف هي نفسها حتي الآن، ولكن أساليبهم للوصول إليها قد اختلفت. ولا يكون من المبالغة في القول بأن الغرب قد نجح إلي حد ما في الحصول على بعض أغراضهم، لكنهم فشلوا كليا في التقليل عن الحمية الإسلامية. وقد اندهشوا على أن علاقةَ المسلمين بدينهم وحبّهم بنبيهم صلي الله عليه وسلم مازالت وطيدةً رغم محاولات الغرب الجادة المستميتة على إقلاعها، فلم يبق أمامهم إلا تغيير الأساليب.

فبدخول القرن الحادي والعشرين نري أن الغرب قد جمع جنوده ورتب حشوده لمواجهة المسلمين. وهم يريدون بأي حال أن يُعَلمِنُوا الدول الإسلامية. وقد آذوا المسلمين بنشر صورة نبيهم صلي الله عليه وسلم في صور كاريكاتير المشوهة المقبوحة، وقد غزوا المسلمين غزوا فكريا ببث القنوات الدعائية ضد الإسلام (أمثال God TV)، وببناء الأفلام والمسرحيات التي تصف الإسلام ونبيه صلي الله عليه وسلم باوصاف قبيحة (وهو منه برئ) التي لا تليق بشخص عادي دون شخصيته الرحمة صلي الله عليه وسلم. وقد شنوا الغارة على الدول الإسلامية التي أظهرت انتماءها إلي الإسلام وامتثالها لأوامر الله. ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين.

رغم كل هذه المحاولات، فإن الحركة الإستشراقية قد تضاءلت وانحازت إلي جحرها، والعلماء المسلمون قد أصبحوا من الوعي والثقافة ما يجعلهم يميزون بين الغث والسمين، والطيب والخبيث، ويفطنون إلي ألاعيب المستشرقين ومكائدهم، وقد أنتجوا كثيرا من الأبحاث والدراسات المستفيضة القيمة التي جعلتنا في غير حاجة إلي بضاعة فكرية مستوردة.٧٢ إنهم لم يستطيعوا أن يبعدوا الإسلامَ عن متبيعيه، ولا أن ينزعوا مودةَ محمدٍ صلي الله عليه وسلم عن محبيه. والأمر لم ينحصر عليه فقط بل انعكس، حيث إن تيارَ إعتناقِ الإسلام قد تغلب في الدول الغربية بحيث أن عدد معتنقي الإسلام من أهل الغرب يزداد يوما فيوما. فالذي يهمنا نحن أن نعتني بالحفاظ على ثروتنا وقيمنا وشعائرنا وأبنائنا المثقفين دون أن نتركهم فريسة العابثين ولعبة اللاعبين.

الهوامش

(١) انظر: الطيباوي، عبد اللطيف، الدكتور، المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية (دراسة نقدية)، (ص: ٢٤)، الطبعة الأولي، رياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٩١

(٢) يقول فان كريمر متهما زملاءه المؤرخين الغربيين:

they are not treating the history of Muhammad according to the principles of a sound enlightened criticism. Buaben, Muhammad, Jabal, Image of the prophet Muhammad in the west, p.21, & 308-312, Leiceester, UK, the Islamic foundation (1996)

(٣) أما قول نجيب العقيقي ونظرائه من الكُتاب " بأن مناهج المستشرقين تتميز بالجد، وبالدأب علي البحث، والتعمق، والتحليل، والإستقراء، والإستنتاج والوصول إلي الحكم العام " (العقيقي, نجيب, المستشرقون, (١١٤٣/٣-١١٤٤), الطبعة الأولي, قاهرة, دار المعارف, ١٩٦٤) ففيه شئ من التعسف. والواقع العملي يرفضه.

(٤) حمدان، نذير، الأستاذ، الرسول صلي الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين, (ص: ١٥٤)، الطبعة الأولي، قاهرة، مطبوعات سلسلة دعوة الحق, ١٩٨١

(٥) نقلا عن: فوزي، عمر، فاروق، الدكتور، الاستشراق وتاريخ العصر العباسي، (ص: ١٢٠)، مجلة الاستشراق، العدد الأول، جنوري ١٩٨٧

(٦) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي،(ص: ٤٣) (إعادة) الطبعة الأولي، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٢م (ترجمه إلى العربية عبد الصبور شاهين)

(٧) الندوي، الحسني، علي، أبو الحسن، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين الإسلاميين, (ص: ١٦)، الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة الرسالة, ١٩٨٦

(٨) علي، جواد، الدكتور، تاريخ العرب في الإسلام، (ص: ١١٨-١١٩)، الطبعة الأولي، بغداد، مطبعة الزعيم, ١٩٦١

(٩) الطيباوي، عبد اللطيف، الدكتور، المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية (دراسة نقدية), (ص: ٢١)، الطبعة الأولي، رياض، إدارة الثقافة والنشر بالجامعة الإمام محمد بن سعود, ١٩٩١

(١٠) حمدان، نذير، الرسول صلي الله عليه سلم في كتابات المستشرقين (ص: ٧٢)

(١١) الدكتور، خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية, (ص: ١١)، الطبعة الأولى، بيروت، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع, ١٤٢٦

(١٢) نقلا عن: خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية (ص: ٢٧)

(١٣) شاكر، محمد، محمود، رسالة في الطريق إلي ثقافتنا،(ص: ٦٦)، (بدون ذكر عدد الطبع)، قاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٧

(١٤) المسلاتي، نصر، مصطفى، الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، (ص: ٦١)، الطبعة الأولى، طرابلس، منشورات دار اقرأ، ١٩٨٦

(١٥) علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام (ص: ٩)

(١٦) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية, (ص: ٤٧)، الطبعة الخامسة، بيروت، دار العلم للملايين, ١٩٧٣

(١٧) نفس المصدر (ص: ٥٢)

(١٨) نقلا عن: الديب، محمود، عبد العظيم، الدكتور، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، (ص: ٧٨)، الطبعة الأولي، قطر، كتاب الأمة، ١٤١١هـ

(١٩) حمدان، نذير، الرسول صلي الله عليه سلم في كتابات المستشرقين (ص: ١٣٣)

(٢٠) وقد أجاب عن هذه التساءلات المثارة بالتفصيل مجموعة من الباحثين. انظر: الزقزوق، حمدي، محمود، الدكتور(جمعه ورتبه وقدم له)، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المتشككين (مقالات لمجموعة من الباحثين)، الطبعة الأولي، مصر، وزارة الأوقاف، ٢٠٠٢

(٢١) الحصين، سلطان بن عمر بن عبد العزيز, موقف المستشرق سيدو من السيرة النبوية (رسالة الماجستير)، (ص: ٤٥)، الطبعة الأولى، رياض، جامعة الإمام محمد بن سعود, ١٤١٣هـ

(٢٢) (النساء: ١٦٣)

(٢٣) (الشورى: ١٣، ١٤)

(٢٤) علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام (ص: ١٠)

(٢٥) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية, (ص: ٣٤)

(٢٦) نفس المصدر (ص: ٦٩)

(٢٧) وات، مونتجمري، ويليام، محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، (ص: ١١٣)، الطبعة الأولي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤١٥هـ، (ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ)

(٢٨) وات، مونتجمري، محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة (ص: ١٢١)

(٢٩) نقلا عن: الطيباوي، المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية (ص: ٣٤)

(٣٠) وات، مونتجمري، محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة (ص: ١٦٩)

(٣١) انظر: عوض، إبراهيم، الدكتور، نقد دائرة المعارف الإسلامية الإستشراقية (أضاليل وأباطيل)، (ص: ٢٦)، الطبعة الأولي، قاهرة، مكتبة البلد الامين، ١٩٩٨

(٣٢) الطيباوي، المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية (ص: ٣٨)

(٣٣) علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام (ص: ١٠)

(٣٤) وهذا نصه:

Sa'd bin Ubadah was also absent from Badr، allegedly suffering from snke-bite... the latter indeed is said to have been suffering from snake-bite، but that may be merely his excuse.

See: Watt, Montgomery, William, Muhammad at Medina, p.177/181, Oxford at the clarendon press, (1956)

(٣٥) قال الواقدي: وقد روي أن سعد بن عبادة ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره وقال حين فرغ من القتال ببدر: لئن لم يكن شهدها سعد بن عبادة، لقد كان فيها راغبا. وذلك أن سعد بن عبادة لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد كان يأتي دور الأنصار يحضهم على الخروج فنهش في بعض تلك الأماكن فمنعه ذلك من الخروج فضرب له بسهمه وأجره. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، أبو عبد الله، كتاب المغازي, (١/ ١٠١)، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الأعلمي, ١٩٨٩, (بتحقيق الدكتور مارسدن جونس)، ونقله ابن سعد كذلك. البصري، محمد بن سعد بن منيع، أبو عبدالله، الطبقات الكبرى, (٣/ ٦١٤)، الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر, ١٩٦٨, (بتحقيق إحسان عباس)

(٣٦) ما روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان. قال: فتكلم أبو بكر فأعرض، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها. ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. قال فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا... النيسابوري، القشيري، مسلم بن الحجاج، أبو الحسن، صحيح الإمام مسلم (المسمي بالمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، (١٧٧٩)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)

(٣٧) عوض، إبراهيم، نقد دائرة المعارف الإسلامية الإستشراقية (أضاليل وأباطيل) (ص: ٢٤)

(٣٨) وقد روي الكلبي هذا الخبر بدون سند بلفظه: وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها يوما، فقال: لقد أهديت للعزى شاةً عفراء، وأنا على دين قومي. انظر: الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، أبو المنذر، كتاب الأصنام، (ص: ١٩)، الطبعة الثالثة، قاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٥، (بتحقيق أحمد زكي باشا). والصواب هو "اهتديت". انظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله، أبو عبد الله، شهاب الدين، معجم البلدان, (٤/ ١١٦)، الطبعة الثانية، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥

(٣٩) ديورانت، ول، قصة الحضارة، (ص: ٤٤٧٦)، (بتنسيق غسان إسحاق)، (ونسخة الكتاب لا تحتوي على معلومات غير ذلك)، وانظر: الديب، محمود، عبد العظيم، الدكتور، المستشرقون والتراث, (ص: ٣١-٣٢)، الطبعة الثالثة، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع, ١٩٩٢

(٤٠) انظر: ديكارت، رينيه، مقال عن المنهج، (ص: ٢٩-٣٠)، الطبعة الثانية، قاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨ (ترجمه إلى العربية محمود محمد الخضيري)

(٤١) العقاد، محمود، عباس، عقائد المفكرين في القرن العشرين، (ص: ٢١)، (دون ذكر عدد الطبعة)، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٧٩م

(٤٢) حسين، طه، الدكتور، في الأدب الجاهلي، (ص: ١٤٦-١٤٧)، الطبعة الثالثة، قاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٣

(٤٣) حمدان، نذير، الرسول صلي الله عليه سلم في كتابات المستشرقين (ص: ١٦٢)

(٤٤) وات، مونتجمري، محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (ص: ١٠٠)

(٤٥) نفس المصدر (ص: ١٠١)

(٤٦) نفس المصدر (ص: ١٢٢)

(٤٧) نفس المصدر (ص: ٢٤١) وقد ذكر وات خمسة أسباب محتملة لهجرة المسلمين إلي الحبشة.

(٤٨) وات، مونتجمري، محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (ص: ٢٤٦)

(٤٩) عوض، إبراهيم، نقد دائرة المعارف الإسلامية الإستشراقية (أضاليل وأباطيل) (ص: ٥٣-٥٤)

(٥٠) انظر: الحيدر آبادي، حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة،(مقدمة ص: ٢٤)، الطبعة الخامسة، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٥

(٥١) نقلا عن: خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية (ص: ٢٦)

(٥٢) نقلا عن: حمدان، نذير، الرسول صلي الله عليه سلم في كتابات المستشرقين (ص: ١٥٦)

(٥٣) الطيباوي، المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية (ص: ٢٩)

(٥٤) حمدان، نذير، الرسول صلي الله عليه سلم في كتابات المستشرقين (ص: ١٣٤)

(٥٥) رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتيهما عصمني الله تعالى فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال: بلى. قال: فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة فجلست أنظر، وضرب الله تعالى على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي، فقال : ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل

فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته. واللفظ للحاكم. انظر: النيسابوري، الحاكم، محمد بن عبدالله، أبو عبدالله، المستدرك على الصحيحين, (٤/ ٢٧٣)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية, ١٩٩٠, (بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، والبُستي، التميمي، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (بترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي)، كتاب التاريخ، باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على دين قومه قبل أن يوحى إليه، رقم الحديث (٦٢٧٢)، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨، (بتحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط)، والبيهقي، أحمد بن الحسين، أبو بكر، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة, (٢/ ٣٣)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ, (بتحقيق عبد المعطي قلعجي)

(٥٦) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، (ص: ٦٧)، الطبعة السابعة، دمشق، دار القلم، ١٩٩٨، (بتحقيق الشيخ الألباني)

(٥٧) ونصه:

t is curious that the man to whom the rumour of Muhammad's death is attributed should have been one of 'Abdallah b. Jubayr's band of archers.

See: Watt, Montgomery, Muhammad at Medina, p.25

(٥٨) وفيه: ونادى إبليس وتصور في صورة جعال بن سراقة إن محمدا قد قتل ثلاث صرخات. فابتلي يومئذ جعال بن سراقة ببلية عظيمة حين تصور إبليس في صورته وإن جعال ليقاتل مع المسلمين أشد القتال وإنه إلى جنب أبي بردة بن نيار وخوات بن جبير، فوالله ما رأينا دولة كانت أسرع من دولة المشركين علينا. وأقبل المسلمون على جعال بن سراقة يريدون قتله يقولون هذا الذي صاح " إن محمدا قد قتل ". فشهد له خوات بن جبير وأبو بردة بن نيار أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح وأن الصائح غيره. قال رافع وشهدت له بعد. انظر: الواقدي، كتاب المغازي (١/ ٢٣٢)

(٥٩) وهذا نصه:

Before the party arrived back in Medina، Muhammad's young wife A'ishah who had accompanied them، was somehow left behind after the last halt، and eventually entered Medina after the others attended by a handsome young man. Tongue wagged، and idn e ubayy did what he could to magnify the scandal.

See: Watt, Montgomery, Muhammad at Medina, p.186

(٦٠) الديب، عبد العظيم، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي (ص: ١١٦)

(٦١) روي عن كعب أنه قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فما كان يدخل بيته منها درهما واحدا، يعني أنه يتصدق بذلك كله... انظر: القرطبي، النمري، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، أبو عمر، الإستيعاب في معرفة الأصحاب, (٢/٥١٤)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢, (بتحقيق علي محمد البجاوي)

(٦٢) الديب، عبد العظيم، المستشرقون والتراث (ص: ٣٧)

(٦٣) روي الطبري بسنده عن عبدالله بن عكيم أنه قال: لما وقع بين ابن مسعود وسعد الكلام في قرض أقرضه عبدالله إياه فلم يتيسر على سعد قضاؤه غضب عليهما عثمان وانتزعها من سعد وعزله وغضب على عبدالله وأقره... الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك, (٢/ ٥٩٦)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية, ١٤٠٧هـ

(٦٤) الديب، عبد العظيم، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي (ص: ٩٩-١٠٠)

(٦٥) درمنغم، إميل، حياة محمد (المقدمة)، (ص: ١٠)، الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨، (ترجمه إلي العربية عادل زعيتر)

(٦٦) انظر: خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية (ص: ٢٤)، والنعيم، الأمين، محمد، عبد الله، الاستشراق في السيرة النبوية (دراسة تاريخية لآراء وات-بروكلمان-ولهاوزن) (رسالة الدكتوراة), (ص: ٤٢-٤٤)، الطبعة الأولي، ورجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي, ١٩٩٧، والشريوفي, عمر بن مساعد، موقف المستشرق مونتجمري وات من غزوات الرسول صلي الله عليه وسلم من خلال كتابه "محمد في المدينة" (رسالة الماجستير)، (ص: ١٠٠)، رياض، جامعة الإمام محمد بن سعود, ١٤١٦هـ، والحصين، سلطان بن عمر، موقف المستشرق سيدو من السيرة النبوية (ص: ٢٠)

(٦٧) انظر: إدريس، شيخ، جعفر، الدكتور، منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد صلي الله عليه وسلم (مقال)، ضمن مجموعة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، (٢٣٦/١)، الطبعة الأولي، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥

(٦٨) نقلا عن: خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية (ص: ١٠٨)

(٦٩) انظر: النعيم، الأمين، عبد الله محمد، الاستشراق في السيرة النبوية (دراسة تاريخية لآراء وات-بروكلمان-ولهاؤزن) (ص: ٤١)

(٧٠) الشريوفي, عمر بن مساعد، موقف المستشرق مونتجمري وات من غزوات الرسول صلي الله عليه وسلم من خلال كتابه "محمد في المدينة" (ص: ١٢٠)

(٧١) وهي: الأول: الحيلولة بين الشعوب النصرانية وبين الإسلام. الثاني: تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين، والعمل لتحطيم المقاومة الإسلامية، بتأويل الجهاد. الثالث: فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة، بتشويه تلك الأصول، وعزلها عن مصادرها، وهدم المقوّمات الأساسية للكيان الفردي والاجتماعي والنفسي، أمام الاستعمار وثقافته. حمدان، نذير، الرسول صلي الله عليه سلم في كتابات المستشرقين (ص: ٩٠-٩٢) وزاد عليها الدكتور بهجة كامل عبد اللطيف هدفين. وهما: الرابع: تكريس التخلف العربي الإسلامي وذلك بإبقاء العالم الإسلامي علي ضعفهما وانقسامهما وتأخرهما وإيهام المسلمين أن التخلف والضعف نتيجة من نتائج اتباعهم للإسلام واقتدائهم بالرسول. الخامس: القضاء علي وحدة المسلمين وإدخال الفرقة والتناحر بين أبناء البلد الواحد. عبد اللطيف، كامل، بهجة، الدكتور، صور من افتراءات المستشرقين حول الرسول محمد صلي الله عليه وسلم وبيان بطلانها (مقال)، (ص: ٧١٥)، العراق، جامعة بغداد، مجلة كلية العلوم الإسلامية، ٢٠٠٩

(٧٢) الخربوطلي، حسني، علي، الدكتور، المستشرقون والتاريخ الإسلامي, (ص: ١٣٦)، الطبعة الأولي، قاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٨

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆